نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني ( 471 ه )

النظم لغة : التأليف ونظمت اللؤلؤ جمعته في سلك واحد .

1ـ بدأت فكرة النظم قبل عبد القاهر الجرجاني عند النحويين العرب من أمثال سيبويه والمبرد وأبي سعيد السيرافي وابن جني وعند البلاغيين العرب من أمثال الجاحظ وابن قتيبة وأبي هلال العسكري وعند علماء الإعجاز القراني من أمثال الخطابي والرماني والباقلاني والقاضي عبد الجبارالأسد آبادي وكل هؤلاء سبقوا عبد القاهر زمنا

2ـ ظلت الجهود الفكرية لكل أولئك العلماء الذين ذكرنا آ راء متناثرة ولم تصبح نظرية متكاملة ومنسجمة لها قضاياها ومصطلحاتها وتطبيقاتها وتحليلها النصي للشواهد القرانية والشعرية والنثرية إلا على يد عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري .

3ـ عرض عبد القاهر الجرجاني نظرية النظم في كتابه ( دلائل الإعجا ز ) فقدم تعريفات مختلفة للنظم في هذا الكتاب إلاأنّ أكثرها شيوعا وأهمية تعريفه الذي يقول فيه (( اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه . . . فلا تزيغ عنها . . . ))وهناك تعريف آخر يقول فيه (( وليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض )) .

4ـ نفهم من التعريفين السابقين أنّ النظم هو تأليف الكلام سواء أكان مشافهت أم كتابة وربط أجزاءه ومكوناته ألفاظا وجملا بعضها ببعض على وفق قوانيين النحو العربي . وهنا نسأل هل تعمل هذه القوانين وحدها أم هناك أساس تقوم عليه ؟ الجواب الذي نفهمه من نظرية النظم هو أن القوانيين النحوية لاتعمل لوحدها بل بمساعدة أمرين مهمين هما مقتضى حال المتكلم ونريد بذلك مقاصده ومعانيه وأغراضه التي يريد ايصالها للاخرين والأمر الثاني هو مقتضى حال المخاطب ونريد بذلك حالة المتلقي وظروفه وهيئته ومشاعره وعواطفه ومعارفه وجنسه وكل ما يتعلق به بناءهذين الأمرين وبت أثيرهما يتم نظم الكلام وتأليفه نقول على سبيل المثال : 1ـ زيد قائم 2ـ إنّ زيد ا قائم 3ـ إنّ زيدا لقائم نسأل هل التأليف واحد ؟ هل المعنى واحد ؟ أين الإختلاف ولمذا وما علته بلاغيا ؟ ولننظر في قوله تعالى (( وكلبهم باسط ذراعيه في الوصيد )) إذا قلنا ( وكلبهم يبسط ذراعيه بالوصيد ) هل حدث اختلاف ولماذا وما علته بلاغيا ؟

5ـ في نظرية النظم تعود بلاغة الكلام وابداعه وقيمته الفنية والفكرية إلى نظمه وتركيبه وتأليفه وليس إلى ألفاظه المفردة فالألفاظ المفدة لاقيمة لها إلابعد أن تتحد مع بعضها و ينضم بعضها إلى بعض في كلام يدل معنى يقول عبد القاهر(( ... أنّ الألفاظ لاتتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ...وأنّ الألفاظتثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة الفظة لمعنى التي تليها ...)) ولذلك جاءت مقولته الشهيرة ( الألفاظ خدم للمعاني )) فالمتكلم كما يتعقد إنّما يطلب المعاني أولا ثم تأتي الألفاظ مرتبة بحسب المعاني والأغراض التي يريدها .

6ـ يرى عبد القاهر أنّ الفنون البلاغية مثل التشبيه والإستعارة والكناية لاقيمة لها بنفسها بل بطريقة نظمها وتجلى ذلك في تحلليه قوله تعالى ( واشتعل الرأس شيبا ) فذكر أنّ الإستعارة في الآية لاقيمة لها بنفسها بل بطريقة نظمها وتأليفها على وفق قوانيين النحو .

7ـ فرق عبد القاهر بين مصطلحين هما اللغة والكلام . فاللغة عنده مجموعة القوانين والقواعد النحوية والصرفيو والصوتية والدلالية التي تقوم عليها كل لغة من اللغات في العالم وهذه القوانين اللغوي تكون مشتركة بين كل متحدثي تلك الغة يعرفها الجميع عن طرق تعلمها فلا تمايز ولا تفاوت بين شخص وآخر في هذه المعرفة اللغوية بالقواعد والقوانين . أما الكلام فهو الاستخدام الشخصي والفردي لتلك القواعد والقوانين اللغوية عند صناعة الكلام وبحسب المقاصد والمعاني والأغراض التي يعبر عنها المتكلم ويريد نقلها إلى المخاطب وهنا يظهر الإختلاف بين الناس فلسنا جميعا متشابهين في ذلك الاستخدام فلكل واحد منا طرقته الخاصة به في استخدام قواعد اللغة عندما يريد صناعة كلامه فلا يتشابه اثنان في ذلك ولذلك قيل لكل متكلم أسلوبه ولكل شاعر أسلوبه ولكل ناثر أسلوبه .

8ـ يذهب عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم إلىوجود نوعين من المعاني الأول يسمى المعنى ويريد به المعنى الحقيقي الظاهر كما جاء في الوضع ويفهمه المخاطب دون عناء أوجهد وبيسر أما المعنى الثاني فهو ( معنى المعنى ) ويريد به المعنى المجازي غير المباشر الذي لا يفهمه المخاطب بسولة بل يحتاج إلى بذل جهد ما كي يفهمه ويسمى هذا الجهد بالتأويل يقول عبد القاهر (( ...تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك إللى معنى آخر...))ولنأخذ على ذلك مثالا نقول زيد كريم زيد كالبحر جاءني بحر زيد كثير الرماد .

9ـ رفض عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم قضية السرقة الشعرية أو الأدبية وهي إحدى القضايا في النقد العربي القديم لأنه آمن بأنّ لكل إنسان أسلوبه وطريقته الخاصة والفردية في نظم الكلام وتأليفه فلا يتشابه اثنان وبالتالي لاوجود للسرقة بين الشعراء أو الأدباء أو المتكلمين.